حتى كون آبائهم على غير هدى أو عقل، فالاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء.

وقد أنكر بعض العلماء أن يكون التقليد طريقا إلى معرفة الحق فقال: «التقليد ليس طريقا للعلم ولا موصلا له، لا في الأصول ولا في الفروع وهو قول جمهور العقلاء والعلماء خلافا لما يحكى عن جهال الحشوية والثعلبية من أنه طريق إلى معرفة الحق »[1]، على أن القرطبي تسامح في التقليد للعالم في نازلة خفيت فيها أوجه الأدلة، والنظر على عالم آخر أراد أن يجدد الفكر فيها، والنظر حتى يقف على المطلوب [2].

● **المبحث الثاني : إخفاء الحقيقة عند الأكثرية :**

لقد تبين لنا موقف الأكثرية من الحق من جهة العاطفة ، ورأينا أنهم يكرهون الحق، وعرفنا أن الأسباب المؤدية إلى ذلك متعددة، منها الحسد ومنها البغي والظلم ومنها اتباع الهوى والتقليد والجهل والخوف من الضغوط الاجتماعية الزائفة، والآن سنتناول جانبا آخر هو موقف الأكثرية من الحقيقة من جهة الإظهار والإخفاء .

والآيات التي تبين ذلك متنوعة مكية ومدنية، وهي :

١ ـ ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ [الأنعام: ٩١] .

٢ ـ ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [المائدة: ١٥] .

---

(١) صفوة التفاسير ١/١١٩

(٢) القرطبي : الجامع في أحكام القرآن ٢/٢١٢

هاتان الآيتان جاءتا في سياق الحديث عن موقف بني إسرائيل من الحق، ولكن معناهما شامل لسلوك البشرية في كل حين .

وسياق آية المائدة وهي مدنية يتحدث عن أهل الكتاب بصفة عامة يهود ونصارى ويبين أنهم كانوا يحرفون الوحي باستمرار، وذلك هو موقف الأكثرية منهم إلا قليل، قال تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ** ﴾ [المائدة : ١٣] .

وهذه القلة القليلة منهم التي كان موقفها من الكتاب هو إظهار الحق هي تلك التي أسلمت عهد الرسول ﷺ، وقد نجد في العصر الحديث بعض المستشرقين الذين يتحرون الموضوعية في بحوثهم مثل موريس بوكاي الذي اعتمد على منهج مقارنة الأديان من أجل « معرفة أي كتب هذه الديانات تنقل الوحي الإلهي حقيقة »[١] أما الأغلبية فقد كانت تخفي الآيات الكثيرة قديما وحديثا، ففي القديم يذكر القرطبي أن اليهود كانوا يخفون آية الرجم والآيات التي تكشف ما آل إليه أمر أصحاب السبت من مسخهم قردة[٢] ، ويرى قطب أن دور النبي ﷺ بخصوص هذا الأمر كما تبينه الآية، هو أن يوضح ويكشف ما تواطأ على إخفائه ـ من حقائق كتاب الله الذي مع أهل الكتاب ـ الذين أخفوا الأساس الأول للدين وهو التوحيد، وأخفوا كثيرا من أحكام الشريعة كرجم الزاني وتحريم الربا كافة وإخبار بعثة النبي محمد ﷺ، ويعفو عن كثير مما أخفوه أو حرفوه مما لم يرد به شرعه [٣]، ويبين أنهم قد جعلوا التوراة في صحائف يتلاعبون بها فيبينون منها للناس ما يتفق مع خطتهم في التضليل والخداع والتلاعب بالأحكام والفرائض ويخفون ما لا يتفق مع هذه الخطة من صحائف التوراة [٤] .

---

(١) شايب لخضر : نبوة محمد ﷺ في الفكر الغربي المعاصر ص ٤١٠ ـ (مخطوط ـ أطروحة دكتوراه جامعة الجزائر ـ كلية أصول الدين سنة ١٩٩٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٦/١١٨

(٣) في ظلال القرآن : ٦/٨٦١ـ٨٦٢ (٤) نفسه : ٧/١١٤٦

والآيات السابقة من سورة الأنعام تبين حجم المبالغة في إخفاء الحقيقة فهم قد قالوا : ﴿ **مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾[الأنعام:٩١] هكذا ينفون نزول الكتب أصلا على أي بشر، وهذا منتهى التبجح في إخفاء الحقيقة الدينية، إنه إخفاء لمصادر التشريع كلها، وإنكار لوجودها، والزمخشري يروي أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم هو من قال أمام الملأ مخاطبا الرسول ﷺ « ما أنزل الله على بشر من شيء » فقال له قومه ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك فقال إنه أغضبني، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف [١] .

وبغض النظر عن كون الذي قال ذلك واحد منهم، أي من الأقلية كما يبدو، أو من الكثرة كما يشير ضمن الجماعة، فإن إخفاء الحقيقة بهذه المبالغة هدفها إنكار النبوة وإنكار إنزال القرآن[٢] ، والآية نفسها تكشف حجم ما صنعوه من إخفاء الآيات والتشريعات ﴿ **تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً** ﴾[الأنعام:٩١] ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [المائدة:٥١] ولا شك أن تكرار لفظ "كثير" في آية الأنعام وآية المائدة يبين مبالغتهم في إخفاء الحقيقة وكتمان الحق .

والسؤال المطروح الآن : ما سبب ميل الأكثرية لإخفاء الحقيقة ؟ أهو نفس الأسباب التي سبقت في الحديث عن كره الحقيقة، من جهل، واتباع الهوى، وتقليد أعمى، وخوف ضياع المصالح الخاصة، واستبداد السلطان، أم هناك أسباب أخرى؟ .

لماذا يخفي كثير من الناس الحقيقة ؟ ولكي نجيب عن هذا ينبغي أن نتساءل : ما هي الحقائق التي كان اليهود يخفونها ؟

لقد تبين لنا قبل أنهم كانوا يخفون حقيقتين ؛ النبوة ، وبعض الأحكام ، ولكن الآيات التي تتناول موضع كتمان الحق تتعلق كلها بأهل الكتاب وهي :

---

(١) الكشاف : ٢/٣٤ (٢) نفسه

١ـ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧١]

٢ـ ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢].

٣ـ ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٤٦]

٤ ـ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾

[آل عمران : ١٨٧]

٥ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[البقرة :١٥٩] .

وهذه الآيات الخمس تتعلق الثلاث الأولى منها بكتمان الحق عموما، وتتعلق الرابعة والخامسة منها بكتمان البينات التي نزلت في الكتب السماوية من جهة ومن جهة ثانية نجد الآية الثالثة تبين أن فريقا منهم هو من يكتم الحق عن علم بينما نجد بقية الآيات تجعل الصفة مقترنة بأهل الكتاب جميعا.

ومن جهة ثالثة نجد الآيات الثلاثة الأولى تؤكد مسألة الترابط بين الكتمان والعلم بالمكتوم ﴿ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران: ٧١] . فلماذا الإصرار على كتمان الحق مع العلم به ؟ وما هو الحق المكتوم هنا ؟ قال ابن عاشور :« تلبيس الحق بالباطل تلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة حتى ارتفعت الثقة بجميعه، وكتمان الحق يحتمل أن يراد به كتمانهم تصديق محمد ﷺ، ويحتمل أن يراد به كتمانهم ما في التوراة من الأحكام التي أماتوها وعوضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها »[1] .

---

(١) التحرير والتنوير ٣ / ٢٧٩

والحق أن نظرة شاملة للآيات السابقة كلها تبين أن المراد الأمرين معًا، فهم يكتمون ما يتعلق بنبوة محمد ﷺ، كما يكتمون التشريع الذي لا يساير أهواءهم، فقد أخذوا على أنفسهم موثقا بأن يبينوا للناس كل ما يتعلق بما أنزل الله في الكتاب بدون استثناء كما يبين قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾[آل عمران:١٨٧] ولكنهم خالفوا ذلك: ﴿ **فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾[آل عمران:١٨٧]، ولذلك استحقوا اللعنة كما تبين آية البقرة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾[البقرة:١٥٩]، فهم يكتمون ما أنزل من البينات ويكتمون الهدى الذي واثقوا على أن يبينوه للناس، ولذلك لعنوا، يقول القرطبي: «أخبر تعالى أن الذي يكتم ما أنزل من البينات والهدى ملعون، واختلفوا من المراد بذلك؛ فقيل أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ، وقد كتم اليهود أمر الرجم، وقيل المراد كل من كتم الحق، فهي عامة في كل من كتم علما من دين الله يحتاج إلى بثه، وذلك مفسر في قوله ﷺ: « من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »[1].

ووجهة نظر القرطبي هذه قريبة جدا من الحقيقة، ذلك لأن الكتمان للحق كان ولا يزال، ولئن كان اليهود قد كتموا الأمرين معا؛ أمر النبوة، وبعض مضامين الرسالة، فإن الكتمان اليوم صار أوسع في الخلق جميعا وإن اختلفت الأساليب، ولذلك نميل إلى القول بأن « المراد كل من كتم الحق فهي عامة في كل من كتم علما » وقد يعضد هذا الرأي ما ذهب إليه الشيخ المكي الناصري من أن الآية «وجهها الحق سبحانه وتعالى إلى كل من علم علما فكتمه، أو استغل علمه في سبيل منفعة شخصية تعود على مقتضى علمه بالنقص وإبطال أوجه علمه وجهة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/١٨٤

الشر والأذى، أو خان بعلمه الأمانة، أو غش بعلمه الأمة، بحيث يندرج تحت هذه الآيات كل استعمال للعلم في غير وجهه، وكل كتمان له حتى لا يستعمل في وجهه »[1] .

ونستنتج من ذلك أن :

١ ـ الحق المكتوم يشمل دلائل النبوة ومضامين بعض الأحكام، وكل تغطية للآيات الربانية .

٢ ـ الذين عملوا على الكتمان قديما هم أحبار اليهود ورهبان النصارى، وحديثا دخل في زمرتهم كل من عمل على كتمان الحق، بأي وجه من الوجوه بما في ذلك مواقف كثير من المستشرقين والمستغربين، وتكفي الإشارة إلى أن « جولدزيهر مثلا كان يقف بالمرصاد ليرد كل مسيحي أراد دخول الإسلام، وفي هذا دليل كاف على حقده وعدم رضاه بدخول الباحثين عن الحق فيه، ونستطيع أن نضع في هذه الطائفة أكثر المستشرقين المعاصرين اشتهارا بالموضوعية مثل موتغمري وات أو هاملتن جب ، لأنهم جميعا يشتركون في الدس للإسلام والكذب على نبيه وعقيدته وفقهه وتاريخه »[2] .

٣ ـ والنتيجة الثالثة تتطلب بحثا خاصا لذلك علينا أن نتساءل لماذا تعمل الأكثرية على إخفاء الحق وكتمه ؟

إن الآيات القرآنية ـ في منهجنا ـ هي التي تملك الإجابة التي تُعتمد لتفسير هذه الظاهرة، ونحن لا نعدم ذلك، ففي القرآن آيات تشير إلى الظاهرة بدقة منها :

١ ـ قول الله تعالى : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾[البقرة:١٠٩]، فالآية هنا تبين سببا رئيسيا في تفسير هذا السلوك وهو « الحسد » .

---

(١) المكي الناصري : التيسير في أحاديث التفسير ١ / ١٠٢

(٢) شايب لخضر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في الفكر الغربي المعاصر ٢ / ٤٤٠

٢ ـ قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة:١٧٤] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران:١٨٧] . فالآيتان هنا تبينان سببا آخر يعين على تفسير جانب من الظاهرة وهو « حب المال » ، فهم يقبضون مقابل كتمان الحق مطلقا « ثمنا » والقرآن يعده « ثمنا قليلا » لأنه لا يعد شيئا مهما كان كثيرا أمام قيمة الحق، إذ أن قيمة الحق لا تعلوها أي قيمة كانت مهما غالى الناس في رفعها، لأنه لا شيء في النهاية أحق بالاتباع من الحق، فمن كتمه مقابل عرض الحياة الدنيا فقد خسر خسرانا مبينا، ولذلك عقب على الظاهرة في الآية الأولى بما يفيد خسران الآخرة فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة:١٧٤] وعقب على الظاهرة في الآية الثانية بقوله : ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران:١٨٧].

والنتيجة التي يفضي إليها تحليل الآيتين هو أن الدوافع إلى كتمان الحق دافعان :الحسد ،وحب المال والحرص عليه،وهما دافعان قويان جدا،لهما من التأثير على العقل قدرة كبيرة، بحيث تمنعه من رؤية الحقيقة كما هي، بل تدفعه لأن يرى الخير في عرض الحياة الدنيا، فيقبل على كتمان الحق بكل ما أوتي من قوة.

وقد حلل ابن خلدون دوافع النفس إلى الكذب وأثر ذلك على العقل في إصدار الأحكام فقال :« إن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله »[٢] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ١ / ٥٧ (٢) الغزالي أبو حامد : القسطاس المستقيم ص٩٠

فالنفس من حيث هي محضن الدوافع الضاغطة على العقل لها حالان؛ إما أن تكون معتدلة فتسمح للعقل بأن يتحرك وفق المنطق ليمحص الخبر والموضوع، ثم يصدر حكمه مستقيما، وفي هذه الحال سيرى الحق حقا والباطل باطلا، وإما أن تكون قد خامرها تشيع لرأي أو نحلة أو غرض من الأغراض بدافع الحسد أو الطمع أو التعصب، فإنها عندئذ ستضغط على العقل لتفسد عليه ميزان الحكم، على الرغم من توفر الأدلة والبراهين، وعندئذ سيكون الميل لما فيه المصلحة الخاصة، لأن ذلك الميل والتشيع يكون غطاء على عين وبصيرة العقل فيمنعها من الانتقاد والتمحيص فتقع في كتمان الحق وقبول الكذب ونقله .

وهذه الأسباب التي تمنع العقل من الاعتراف بالحق وتدفعه نحو كتمانه أمراض خبيثة تعد في نظر أبي حامد الغزالي أقوى من الخلل العقلي نفسه فالذين « في باطنهم خبث وعناد وتعصب وتقليد فذلك يمنعهم عن إدراك الحق وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفهموا، ولم تهلكهم إلا كياستهم الناقصة فإن الفطرة البتراء والكياسة الناقصة شر من البله بكثير » (١).

وبهذا تجتمع لدينا ثلاثة أسباب تدفع النفس لإخفاء الحقيقة والتكتم عليها هي :

١ ـ الحسد

٢ ـ الطمع ويتجسد خاصة في (حب المال) .

٣ـ الكياسة الناقصة نتيجة مرض نفسي ما، مما يدفع على التعصب الأعمى .

وبهذا ينكشف لنا أن العقل آلة طيعة لميول النفس الخفية، وربما كانت هذه الميول موروثة أصلا، وهي عندئذ مما يصعب الاستشفاء منه، وقد بين الغزالي صعوبة ذلك فقال : « إن المقلد لا يصغي، والبليد وإن أصغى فلا يفهم »(٢) ولذلك يشترط لعلاجهم « خلو باطنهم عن التقليد والتعصب لمذهب موروث ومسموع »(٢) .

---

(١) أبو حامد الغزالي : القسطاس المستقيم ص ٨٥ ـ دار المشرق ـ بيروت ١٩٨٣

(٢) نفسه

ولعل نقص الكياسة والفطنة هو ما جعل كثيرا من الناس يتبعون الشيطان الذي تعد مكائده سببا رئيسيا في دفع القلب لكتمان الحق والتستر عليه، وذلك لأن الشيطان يأتي الإنسان من جهة أقوى إقناعا وهي جهة الأدلة الحسية التي يسميها الغزالي الأدلة المعكوسة في قوله :« لا يستولي الشيطان بحيله على الضعفاء أشد وأكثر من إيهام العكس العام حتى ينتهي إلى المحسوسات »[1].

وهذه الحقائق العلمية التي تكشف عن الأسباب الباطنية التي تدفع الأكثرية لإخفاء الحقيقة على مر التاريخ كيفما كانت سواء أكانت تتعلق بنبوة محمد ﷺ أو بالتشريعات الربانية تعد مما تؤكده الدراسات المعاصرة بشكل من الأشكال، فقد بين عبد الله العروي أن الماركسية ترى أن الإيديولوجية تخفي مصلحة طبقية، وأن نيتشه يرى أن القيم الثقافية أوهام ابتدعها المستضعفون لتغطية غلهم ضد الأسياد، وأن فرويد يرى أن انتاجات العقل تبريرات اختلقها الإنسان المتمدن لمعارضة دافع الرغبة الجارف، وانتهى إلى أن هذه الآراء تحتوي على عامل مشترك وهو أن الأفكار رموز لا تحمل حقيقتها فيها، بل تستر حقيقة باطنية، وفي هذا الستر تومئ إليها، وبتأويل ذلك الإيماء نكشف عن الحقيقة المستورة[2].

وعلى الجملة فإن كل البحوث الجادة التي تتصف بالموضوعية لا بد أن تنتهي إلى نتيجة واحدة وهي أن الأكثرية تميل لإخفاء الحقيقة مطلقا بدافع نفسي خفي أو جلي، وأن هذا الدافع له من القوة ما يجعله قادرا على التلبيس على العقل فيفقد بذلك قدرته على التمييز بين الحق والباطل، مما يدفعه إلى البحث عن التبريرات على مستوى السلوك الفردي بصور مختلفة، وعلى مستوى السلوك الجماعي المنظم تحت مظلة الإيديولوجيا، وهي في جميع الأحوال أمراض، بعضها يستهدف الحظوظ الذاتية الفردية، وبعضها يستهدف حظوظا

---

(١) نفسه ٧٥

(٢) عبد الله العروي : مفهوم الإيديولوجيا ص ٤٣ الجزائر الثقافي العربي الدار البيضاء ط ٦/١٩٩٩ (المغرب - بيروت)

سياسية، عبر عنها ابن خلدون بقوله : « الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها ـ النفس ـ عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله » ووصفها الغزالي بأنها عوارض تعمي عليهم طرق الصواب وتقضي عليهم بالانخداع ولاحقيقة مع السراب، ومنها الحقد والطموح وحب التميز والميل إلى العيش الرغد وبعض النقائص العقلية والتقليد .

● المبحث الثالث : الكذب واتباع الظن

لقد سبقت الإشارة في المبحث السابق إلى أن إخفاء الحقيقة والتكتم عليها مهما كانت دوافعه هو نوع من الكذب كما بين ابن خلدون، ولكننا هنا سنخص الكذب كسلوك إزاء الحقيقة كما تنص عليه الآيات القرآنية بهذا الحديث .

والحق أن التكتم على الحقيقة،واتباع الظن تشترك كلها في شيء واحد وهو أنها سلوك عقلي يصدر عن دوافع نفسية مرضية مختلفة، فهو إذن مختلف عن الموقف العاطفي من الحق كما بينته الآيات التي تناولناها في بيان موقف القلوب .

● المطلب الأول الكذب :

والآية التي تعرض بصورة صريحة مشكلة الكذب كسلوك للأكثرية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ** ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣] .

الظاهرة التي تشير إليها الآية هنا تتعلق بالفرق بين الوحي القائم على طريق الحق، والوحي القائم على طريق الكذب، وهو طريق الشياطين، فهي تتنزل بوحيها على الأفكة الآثمين الذين يلقون السمع لها وأكثرهم كاذبون، والأكثرية هنا، تنصرف على نوع من الإنس ونوع من الجن والشياطين، فهم جميعا متصفون بالكذب، قال القرطبي « وأكثرهم يرجع إلى الكهنة وقيل الشياطين »[1] ، قال ابن كثير: « يقول تعالى مخاطبا لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ١٤٥